الفصل الثالث والعشرون
خاتمة
أيام البارزاني الأخيرة

عند البدء بكتابة الجزء الثالث والأخير من تاريخ ثورة الشعب الكُردي العظمى بقيادة وزعامة قائدها البارزاني. بقيتُ متردداً الى حين في التطرق الى مشهدٍ أخير من مشاهدها وهو مشهدٌ شديدُ الوقع على نفسي بنوع خاص. ترددت كثيراً في بداية الأمر وقضى على ترددي بالأخير شعور غلاب بواجب إطلاع القراء ولاسيّما اولئك الذين آمنوا برسالة البارزاني وبقيادته وشاركوه نضاله – على تفاصيل وقفت عليها شخصياً بحكم وجودي معه في تلك الفترة الأليمة. كيلا أفوّت فرصةً كبيرة على التاريخ العام لثورة أيلول. ولانها جزء لايمكن الإستغناء عنه وكما يقتضيه السياق ويمليه عليّ الغرض الجوهري لكتابي.

وأريد أن أستبق الرواية بتمهيد.

إنتقال البارزاني الى شنو

في الخامس والعشرين من شهر آذار ١٩٧٥، بعد إعلان إتفاق الجزائر بأسبوعين تقريباً. غادر البارزاني حاجي عمران مقرّه الى إيران قاصداً نَغَدَه حيث كانت منازلنا ومنازل بعض اللاجئين هناك. وكان بصحبته (الجنرال منصور پور) الذي جاء لمرافقته خصيصاً.

كان ذلك اليوم من أتعس ما مرّ بي من أيام حياتي. وأنا على يقين بأن غالبية

الشعب الكُردي تشاركني هذا الشعور.

كان الأخ إدريس قد سبق الوالد بيومين - فقصد بلدة (شنو) لينسّق مع السلطة الإيرانية إجراءات إنقاذ العوائل التي عزلها تراكم الثلوج في (خزينه) عن العالم الخارجي بغية نقلها الى موضع آمن. وبذلت محاولات كثيرة لإقناع السلطات بالتعاون، بالأخير أرسلت مروحيتان ناقلتان من طراز (شينوك) لتخلية النساء والأطفال. ولولا ذلك لما نجا منهم أحد. وإجتمع الكلّ في نَغَدَه مع بقية النازحين.

في صيف عام ١٩٧٤ شُرع بفتح معسكرات اللاجئين في الأراضي الإيرانية للنساء والأطفال حمايةً لهم من الغارات الجوية والقصف العشوائي. فأنشئت في مناطق واسعة في نواحي أورميه، وسنه، وكرمانشاه، وحتى الأهواز. وتمّ توزيع اللاجئين عليها. أولئك الذين تدفقوا عبر الحدود في أعقاب إتفاقية الجزائر.

محاولات السلطتيْن بالإغراء على العودة

أختير معسكر كرمانشاه بنوعٍ خاص لإستقبال البيشمرگه والمقاتلين الآخرين. ولوحظ سلوكٌ جديد في تعامل السلطة معهم، ولم يعد سراً أن السبب يعود الى رغبة السلطات الإيرانية في التخلص من أكبر عدد من اللاجئين وتحبيذ العودة لهم الى العراق. فقد كان مصدرَ قلقٍ كبير للمسؤولين الإيرانيين بقاء هذا العدد الكبير الراغب في مشاطرة البارزاني حياة المنفى. كان إصرار هؤلاء المقاتلين الشجعان المخلصين على البقاء لغزاً بالنسبة الى الإيرانيين صعب عليهم فهمه. وبذلوا محاولات عدة تختلف بين الإغراء والشدة، واللين والخشونة دون جدوى. وبلغ الأمر بهم خلافاً لقوانين اللجوء والمعاهدات الدولية بل خلافاً لإتفاقية الجزائر بالذات. أن سمحوا لمسؤولي الحكومة العراقية بالتجول بين المعسكرات وإلقاء الخطب في اللاجئين محبّذين ومرغّبين بالعودة. اذ لم تكن رغبة الجهة العراقية بإعادة اللاجئين تقل عن رغبة الحكومة الإيرانية بل فاقتها في الواقع ولأسباب لاتخفى على القاريء.

تعاقب المسؤولون العراقيون وراحوا يجوبون المعسكرات طولاً وعرضاً ويعقدون الإجتماعات مع اللاجئين تحقيقاً لهذا الغرض، وبلغ إهتمام السلطات العراقية بالمسألة حدّ توجّه صدام حسين نائب رئيس مجلس قيادة الثورة العراقي بنفسه الى طهران

وكتابة رسالة للاجئين بخطه وتوقيعه[1].

وكان هذا الموقف الحدّي بالنسبة للإيرانيين أكثر من أن تتسع له عقولهم لإستيعابه، فهو بالنسبة لمنطقهم وربما كل منطقٍ آخر مسألةٌ لاتستقيم والحكمة والعقل الراجح. فخلافاً لما هو متوقع تماماً وجدوا جماهير الكُرد النازحة تجتمع حول قائد خذلته أطماع دول كبرى ومصالحها وعاندته الأقدار. والجمهور عادةً يُقبل على القائد المظفر ويلتف حوله. وهؤلاء النازحون يأبون ويرفضون بإباء إلاّ الإلتصاق به رغم الوعود والمغريات. ولم يكن ذلك مفهوماً عند الجهتين. وكان مصدر عجب أن يصرّ مايزيدُ عن مائة وثمانين ألفاً على إختيار مصير مجهول ومستقبل غامض بالبقاء مع البارزاني. وتلك ظاهرةٌ قلّما تلقى لها مثيلاً في بطون التاريخ.

رأى الشاه بعد وصول البارزاني نَغَده. أن لايبقى فيها وأن يأتي الى طهران. وتبيّن فيما بعد أنّ ذلك جرى بطلب من الحكومة العراقية التي كانت فيما يبدو تخشى بقاءه هناك لأسباب منها أنْ يكون بقاؤه سبباً في تشجيع اللاجئين وإصرارهم على عدم العودة الى العراق.

وشمل هذا الطلب الأخ إدريس.

خطاب البارزاني في الإجتماع الموسّع

قبل مغادرته أمر بإجتماعٍ موسع خطب فيه مشجعاً حاثّاً على الثبات ومحذّراً من دبيب عوامل اليأس في النفوس. وتكهّن بغدٍ مشرق ومستقبل باسمٍ يُختم فيه نضال هذه الأمة بالنصر.

ومن ناحيتي طلبت من الوالد الإجازة بإستئناف العمل النضالي وإعادة التنظيم في المؤسسات والتشكيلات الحزبية والعسكرية وعلى أسس ومفاهيم مستجدة مستخلصة من الوضع الحالي ومن تجارب الماضي وخبره. فأسرع بالموافقة فوراً وخوّلني صلاحياته متحمساً ومستبشراً داعياً لي بالتوفيق. فلم أُضع دقيقة واحدة وشرعتُ بالعمل فور مغادرته مولياً إهتماماً خاصاً بكوادرنا الشابة.

١- راجع الكتاب نصاً وصورة في الملحق رقم (٥٦) قسم الملاحق. كتب صدام حسين هذه الرسالة في أثناء زيارة لفيف من اللاجئين اليه أثناء قدومه الى طهران في شهر نيسان ١٩٧٥ ودفع بها اليهم لإذاعتها بين اللاجئين الآخرين.

بعث الحركة النضالية

الحالة النفسية العامة السائدة بين اللاجئين ومنهم كوادرنا الحزبية والعسكرية لم تكن مبعث دهشة فصدمةٌ غير متوقعة مثل نكسة الثورة لابدَّ أن تخلّفَ مما تخلّفُ حيرةً وبلبلة. وكان من الضروري قبل كل شيء إعادة الثقة الى النفوس. وتحديد الهدف الذي يعين خط عمل المستقبل. كان الجميع فريسة خيار صعبٍ: بين العودة والبقاء وبكل عوامل التحريض والإغراء من هذا الجانب أو ذاك وبالمستقبل الحافل بالغموض - بات يصعب تشخيص وإختيار العناصر الصالحة المستعدة ذهنياً للنهوض بمسؤوليات النضال الجديد وبكلّ ما يحفّ به من مخاطر من جهتين عدوّتين إجتمعتا على تسخير كل الوسائل المتاحة للقضاء على آخر ما يذكّرها بالثورة العظمى من آثار وتراث. في مثل هذه الظروف صعب كثيراً إختيار الكوادر الصالحة المستعدة. وشدّ من أزري نخبة لاتقلّ حماستها عن حماستي عاهدوا أنفسهم على مواصلة النضال وبرّوا بعهدهم حقاً. وفي أواسط نيسان ١٩٧٥ عقدنا إجتماعنا الأول ليتمخض بما دعوناه في حينه بالقيادة المؤقتة نواة ثورة گولان العتيدة. وتم خلال الإجتماع توزيع المسؤوليات وبادرنا الى بث الدعوة للتنظيم بين اللاجئين وحققنا صلاتٍ داخل العراق ومع الكوادر التي إنتقلت الى سورية وتركيا. ومن بين ما أنجزناه تأمين حاجات البيشمرگه الذين تخلّفوا في كُردستان العراقية وكانت صلاتنا بهم متواصلة، رغم الإتفاق العراقي- الإيراني على إتخاذ الإجراءات الحدودية الصارمة والتعاون بين البلدين على إحباط أي محاولة لإحياء النضال الوطني وبعث الحياة فيه مجدداً. من آثار ذلك أنّ جهاز الأمن الإيراني (الساڤاك) الذي تولّى هذه المسؤولية. قام بتسليم عدد من كوادرنا الناشطة الى السلطة العراقية وتمّت تصفيتهم جسدياً على ما بَلَغَنا. إلا أن هذه المطاردة لم تُثننا عن المواصلة. بكل إستعداد ممّن إختاروا مواصلة النضال للتضحية بالنفس والنفيس.

سأقف هنا مرجئاً الحديث بتفصيل حول هذا عندما أقوم بالكتابة عن ثورة گولان.

مرض البارزاني:

المقدمات

في الأشهر الأخيرة من الثورة. شكا البارزاني من آلام في ساقه اليمنى وحُثّ على المراجعة الطبية فسافر الى طهران يرافقه الدكتور محمود عثمان. وتم إجراء فحص غير سريري وأعطي بعض العلاج[٢].

بعد شخوص الوالد الى إيران. واذكر انه الأسبوع الأول من شهر نيسان ١٩٧٥، ذكرت الوالدة لي ولإدريس أنّ الوالد يشكو من مرضٍ خطير. وأن الآلام الشديدة التي يشعر بها في صدره وظهره حرمته النوم وانه غاب مرّة عن الوعي من فرط شدّتها.

كان أمراً غير منتظر تماماً، وفي مثل هذه الظروف صُعقنا له وإعتزمنا مصارحة الوالد. فأجابنا مُهوِّناً الأمر:

- ليس الأمر مهماً ولاداعي للقلق.

وكان الأمر خلافاً لما يقول. فقد بدت علائمُ تدهور صحته واضحة للعيان. وأوصيتُ الاخ إدريس قبل سفره مع الوالد الى طهران قائلاً:

- حاول أنْ يُعرض على الأطباء وأن تجرى له فحوص.

وكان له عين رأيي. وعلمتُ وأنا في نَغَدَه - وبعد وصوله العاصمة الإيرانية أنّ وضعه الصحي كان يزداد سوءً يوماً بعد يوم. وهو من جهته رفض رفضاً باتاً أن يتولى الأطباء الإيرانيون فحصَه وعلاجه ولم يُثنه عن عزمه رجائي ورجاءُ إدريس الملحّ الى جانب كثيرين وباءت محاولاتنا بالفشل.

لم يكن هناك غير سبيل واحدٍ. طلب الأخ إدريس السماح بالسفر الى الخارج لهذا الغرض. فلم يُسعف الطلب بالأول. وقد علمنا فيما بعد أنّ مصدر الرفض هو الولايات المتحدة والسبب يعود الى خشية الإدارة هناك - من أنْ ينتهز البارزاني الفرصة ليفضح إعلامياً تفاصيل المؤامرة على إطفاء نار الثورة والإشارة باصبعه الى الضالعين فيها. إلاّ أنّه وبعد أخذٍ وردٍّ تمت الموافقة على سفر الوالد لكن لا الى أوروبا بل الى الولايات المتحدة بالتخصيص ولم تكن تلك رغبة البارزاني، فقد كَرِه السفر الى تلك البلاد بعد

٢- راجع رسالتي الدكتور محمود في الملحق رقم (٥٧) قسم الملاحق.

ما جرى. إلاّ أنّه لم يكن ثمّ مجال للخيار وقد بلغ وضعُ الوالد الصحي الى درجةٍ ماعاد مجالٌ معه للتثبت بهذا الخيار. وفي بداية أيلول ١٩٧٥، رتب أمر سفره الى الولايات المتحدة بإتفاق على التفاصيل بين الساڤاك وجهاز المخابرات المركزية الأمريكي CIA، شريطة أن لايقابل صحفياً أو يطلب مقابلة أي مسؤول في الإدارة الأمريكية.

السفر الى الخارج

رافق البارزاني في رحلته كلٌّ من (علي خليل خوشوي) و(شفيق قزاز) وضابط في الساڤاك يدعي (جمشيد أماني). وأخذ فوراً الى عيادة (مايو كلينيك) في مدينة (روچستر) بولاية مينيسوتا. وتبيّن نتيجة الفحص انه مصاب بورم سرطاني في الرئة. بمرحلة متقدمة وليس هناك أيّ أمل في الشفاء.

لم يكن عندي مصدرَ عجبٍ أن تتلقى الجهات الأمريكية والإيرانية هذا النبأ بإبتهاج فهو بطبيعة الحال بشيرٌ بزوال عامل القلق الذي يمثله وجود البارزاني نشطاً على الساحة.

تلقى البارزاني هذه النتيجة بهدوئه المعتاد. وطلب مجيئي أو مجيء إدريس لملازمته.

كنتُ في شوق لرؤيته ووقع عليّ الإختيار لأن إدريس كان معه في طهران حتى آخر يوم لوجوده. وكنتُ قد فرغتُ من توزيع المهام وتفعيل المنظمات ولم يعد ثَمّ حائل يعيقني عن الإجتماع بالوالد. فجرى إناطة أمور التنظيمات بالأخ إدريس. وفي العاشر من أيلول وطأت قدمي الولايات المتحدة لأول مرّة. بل كانت أول رحلة لي الى الخارج بعد النكسة وكلّي شوقٌ وحنين للإجتماع بالوالد بشكلٍ يجلُّ عن الوصف.

وكما قدّمت آنفاً. علمتُ أثناء وجودي في طهران أنّ بعض الأطباء هناك أجرى فحوصاً على الوالد ولم تبلغني نتيجتُها. ولذلك لم أكن مستعداً نفسياً لتلقي نتائج فحوص الأطباء الأمريكان.

إنضمامي الى البارزاني

وسبيلي الى الوالد كان في أمريكا يبدأ من مدينة طهران الى نيويورك التي وصلناها بعد أربع عشرة ساعة بالطائرة ومنها الى مدينة لوس أنجلس حيث يقيم الوالد برحلة

بالطائرة ايضاً قرابة خمس ساعات. وكنت على علمٍ بأنه وبعد إكمال الفحص أُخضع لدورة علاج بالـ(كيموثراپي) تمتدّ ثلاثة أسابيع ثم يعود بعدها للمعاينة في (مايو كلينيك).

ما أنْ بلغت لوس أنجلس حتى أقلّتني سيارة أجرة الى الفندق الذي يقيم فيه الوالد ومرافقوه.

توجهتُ فوراً الى غرفة (علي خليل) وكان معه (شفيق قزاز) فوجدتُ على وجهيهما إمارات الكآبة واضحة. أول ما تبادر الى ذهني عن غرابة اللقاء انه من تأثير وضعنا العام والحالة التي يعانيها شعبنا على أثر النكسة. وسألتهما عن الوالد. فقالا إنّه في الحمام. وطلبت منهما إعطائي فكرة عن نتائج الفحوص وسير المعالجة. فاذا بهما يجهشان بالبكاء. فلم أتمالك نفسي أنا الآخر وسرى مايشبه الشلل في أطرافي وجمد الدم في عروقي. سألتهم "ماذا جرى؟ ماالذي يحصل؟"

وكان مزيد من البكاء ولم أظفر منهما بغير هذه العبارة:

- صبراً حتى يأتي الوالد.

قصدته فور خروجه من الحمام. ووقفتُ حياله وقد علتني الحيرة وإنعقل لساني وأبى أن يسعفني بكلمة واحدة. لم أجد أمامي ذلك الإنسان الذي اعتدتُ رؤيته دائماً. وبدا لي شخصاً آخر نال من كيانه مرضٌ عضال. فأدركه الهزال وغيّر العلاج من قسمات وجهه وحفر أخاديد من التجاعيد ماكانت فيه وإنقلب سوادُ شعر رأسه الكثيف بياضاً من أثر العلاج.

أدرك ما بي في الحال. فبادرني مهوّناً بصراحته المعهودة:

- عليك يا إبني أن تؤمن بأن الموت هو طريق معشر البشر كافةً وليس هو وقفاً على شيخ دون شابٍ، ولا مرتهناً بصحةٍ أو مرض. إنْ حَكَم القضاءُ فلا دفع له ولاسبيل لإرجائه.

ثم تلا الآية "ولكلِّ أمّةٍ أجلٌ. فاذا جاءَ أجلُهُم لايستأخِرونَ ساعةً ولايَستقدِمونَ".

وحاول جهده التخفيف من الصدمة.

مشاعر خاصة

كنتُ في حالة لاتستجيب لأي نوع من التسرية والتهوين. ولعل مردّ ذلك عجزٌ تام في نفسي عن إستيعاب المقدور، وفشل في سيطرةٍ على حواسي. إلاّ أنّ ما ردّني الى الواقع كان محاولة الوالد تخفيف وقع الصدمة عليّ وهو الأحق بالتخفيف من أيّ منا. وهذا من خلقه الذي خبرته وكان مصدراً لإكباري وإعجابي به لا بعاطفة الإبن للوالد، بل بوصفه قائداً وإعتباري جندياً من جنوده. بدا ناسياً حالته في محاولة التسرية عنيّ رغم ماكان يقاسيه. وظلّ على هذا مقيماً قويّ الإرادة والمعنويات عاديّاً تماماً في تصرفاته وعلاقاته وأحاديثه مع الآخرين التي كانت تتجنب تماماً التطرق الى وضعه الصحي وسير الداء فيه.

ومحصّل القول يشقّ عليّ الآن إعطاء صورة قريبة من الواقع للمشاعر التي تملّكتني وأنا في موقف اللقاء الأول. بأعصابي المنهكة من سفر متواصل بالطائرة طوال أربع وعشرين ساعة دون فترة راحة. وفي موقف صعب فقدتُ خلاله كلّ شعور بالجوع فطوال فترة السفر لم اتبلغ بلقمة واحدة. لأجدني بعدها محاولاً إستجماع كل إرادة فيّ وضبط النفس أمام القائد الذي إتخذته منذ حداثتي مثلاً أحتذيه.

بقينا في ولاية كاليفورنيا بضعة أيام ثم أدركنا موعد زيارة عيادة (مايو). ورقد فيها الوالد قرابة أسبوع لإجراء المزيد من الفحوص. ثم أعطي دورة علاج أخرى. بينها أدوية وحقن. وبقيت ملازماً له وتبادلنا أحاديث كثيرة في فترات نخلو فيها من الزوار.

بقي يؤكّد لي موصياً من جملة وصايا أخرى. بالحرص على أن لاتحصل أية فرقة أو خلاف بيني وبين الأخ إدريس مهما كانت الظروف والأحوال. وقد أقمنا على الوصية والحمد لله الى الأخير.

وفي المراجعة الثانية للعيادة الطبية بعد إكمال الفحوص المعتادة - أبدى الأطباء المعالجون إرتياحهم العظيم من تأثير العلاج الناجع ونجاحه في وقف سريان الداء. وفعلاً طرأ تحسّن كبير على صحة الوالد. مما شجّع الأطباء على وجوب الإستمرار في العلاج لمدة ستة أشهر أخرى.

الأطباء المعالجون في عيادة مايو

أودّ بالمناسبة أن أنوّه بأسماء الأطباء الذين أشرفوا على معالجة البارزاني. وأذكر في مقدمتهم رئيسهم الدكتور (ماكفرسن) والدكتور (كارّ) والدكتور (إيگان). لم يكونوا يعرفون هوية البارزاني الحقيقية، ولم تقدمه الجهات المعنية لهم بإسمه فحسبوه مجرد ضيف ذي مكانة يلقى إهتماماً خاصاً من الإدارة الأمريكية. إلاّ أنّ الدكتور ماكفرسن اكتشف هويته بعد فترة. ويظهر انه كان من قرّاء (المجلة الجغرافية الوطنية الشهيرة – The National Geographic Magazine) وقد لفت نظره بشكل ما مطابقة الصورة التي أثبتها للبارزاني تقرير صحافي مصور مطوّل لأحد كتابها الذي زار كُردستان. ونشر في عدد شهر آذار ١٩٧٤ على ما أذكره.

جاء بهذا العدد من المجلة وتناولته أيدي الأطباء والعاملين في المستشفى. ووضحت حقيقة هذا الإنسان الذي يعالجونه رغم حرص السلطات الأمريكية المعنية على كتم هويته. على أن إدارة المستشفى والعاملين فيه كانوا يدركون منذ البدء بأن الشخص الذي يعالجونه بتوصية رسمية، هو شخصية ذات شأن.

مهما يكن، فإنّ إكتشاف هوية البارزاني بهذه الصدفة أحدث نوعاً من التوفز والهستيريا كانت نتيجته مزيداً من مظاهر التجلة والحفاوة. وطلب الدكتور ماكفرسن من البارزاني أنْ يوقّع له واحدة من صوره، ففعل مسروراً.[٣]

وأكّد الأطباء فضلاً عن الإلتزام بمراعاة دورة العلاج بالدواء على ضرورة إجراء فحوصٍ شهرية. في حين اعلم جهازُ الساڤاك مرافِقَنَا الضابط الإيراني بوجوب العودة وقالوا إنّ المعالجة تمّت ولا داعي للبقاء.

سيسكو يزور البارزاني

من زائري البارزاني في تلك الفترة (جوزيف سيسكو) معاون وزير الخارجية (هنري كيسنگر). أذكر أنّه كان يدافع عن مواقف حكومته ازاء ثورتنا مؤكداً بأن البيت

(٣) كان الدكتور جمس روي ماكفرسن أحد أكفأ أطباء عيادة (مايو) فضلاً عن كونه إنساناً رائعاً. وهو الآن متقاعد. ذكر لي أنّه كتب إنطباعاته كعادة الاطباء عن مشاهير الرجال الذين عالجهم فخصّ البارزاني بالمقام الأول بين كثيرين من الزعماء الذين تولى معالجتهم في سائر حياته المهنية.

الأبيض لا يَدَ له قطّ في إخراج تمثيلية إتفاقية الجزائر ١٩٧٥. وإنتهز البارزاني الفرصة ليفصح عما يجول في خاطره ويعتمل في نفسه. ويحضرني من بعض ماقاله هذا السياسي للوالد:

"ايها الجنرال. لا أكتمك انك تحظى عندنا بمقام وتقدير عظيمين قبل أنْ نلقاك هنا. والآن وبعد أن لقيناك وجلسنا اليك فقد تضاعف مقامك وتقديرنا لك عندما كنت أتوقع أنْ تتقدم إلينا بمطلب شخصي فأسأنا التقدير إذ وجدناك بعكس ذلك تتقدم بمطالب لشعبك فحسب لا لنفسك".

وحاولنا بطرق شتى ووسائل عدّة الإنتقال من أمريكا الى أوروبا بدل العودة الى إيران لمواصلة علاجه، ولضمان إبقائه تحت النظارة الطبية المستمرّة، فخاب المسعى إذ لم تكن الدول الأوروبية وقتذاك مستعدة للتطويح بعلاقاتها مع النظامين العراقي والإيراني بإستقباله.

وأسقط في يدنا، وعُدْنا الى إيران في العاشر من شهر تشرين الثاني ١٩٧٥. وبقي البارزاني ملتزماً بتعليمات الأطباء الأمريكيين. وكنّا نلاحظ تحسّناً ملحوظاً في صحته بفعل الدورة العلاجية الجديدة. إلاّ أنّ نكسةً أصابته جراء وفاة أخيه الشيخ (بابو) في الخامس عشر من كانون الأول من السنة عينها.

لم يستطع البارزاني تحمّل هذه الفاجعة رغم صلابته وقوة إرادته فقد كان يؤثر أخاه هذا بمحبّة خاصة بل كان أعزّ مخلوق على قلبه. وبدأت حالته الصحية تتردى فطلبنا السماح بعودته الى الولايات المتحدة لمواصلة العلاج.

مواقف أجهزة المخابرات الأمريكية والساڤاك والضغوط

في بداية الأمر لم نجد من الساڤاك أو وكالة المخابرات المركزية الأمريكية تجاوباً. وبدأت عقبات وتلكؤات توضع في سبيلنا. كانت السلطات الإيرانية تخشى أنْ يستغل البارزاني وجوده هناك ليدلي بتصريحات مسيئة أو ليقوم بنشاطٍ سياسيّ أو إعلاميّ لايتفق ومصلحة إيران.

بمحاولة أخيرة لتخطي هذه العقبات. إتصلنا بالمرحوم الأستاذ محمد سعيد دوسكي وأعلمناه بالواقع. فقام بدوره بالإتصال بالدكتور ماكفرسن فأسرع هذا بكتابة رسالة يوصي فيها بشدّة بضرورة عودة البارزاني الى عيادته لإكمال المعالجة.

بعد حصول الدوسكي على التقرير عمد الى الإتصال بأصدقاء الكُرد في أمريكا من أولئك الذين يمارسون تأثيراً على المحافل الرسمية أمثال (جورج ميني) رئيس إتحاد نقابات العمال الأمريكية ذي النفوذ الواسع والكلمة المسموعة، وإتصل بالسيناتور الشهير (هنري جاكسن) وزميله السيناتور (ديك ستون). كما إتصل بعددٍ من كبار الصحفيين الذين يعطفون على القضية الكُردية من أمثال (وليم سافاير) وقام هؤلاء بإنذار وزارة الخارجية بأنهم سيعمدون الى فضح موقفها هذا إنْ لم تأذن الوزارة للبارزاني بالعودة ومنحه سمة دخول.

ونتيجة هذه الضغوط اضطرت الإدارة الأمريكية الى السماح بالعودة شريطة أن يمتنع عن إجراء أي مقابلة صحفية أو القبول بزيارة أي صحفي وأن لايأتي بأي نشاط سياسي خلال فترة إقامته.

تمّ ذلك كله بتدبير وتفاهم بين الشاه وكيسنگر.

عودة البارزاني وإستئناف العلاج

عاد البارزاني الى الولايات المتحدة وأنا معه. كان إصراره على وجوب إنضمامي اليه يعود الى أكثر من صلة الرحم أو مكانة خاصة فقد أحاط علماً بالمكائد التي كان يدبّرها لي جهاز الأمن الإيراني الذي وقف على نشاطي التنظيمي فإشتدّ قلقه على حريّتي وحياتي. وهذا يعلو عاطفة الأبوة الطبيعية في تلك الظروف.

فقد أدرك جهاز الساڤاك بواسطة جواسيسه وعملائه الغرض من قيامنا بإرسال الرفيقين جوهر نامق سالم وكريم سنجاري الى كُردستان العراق لغرض إعادة النشاط والشروع في التنظيم. ثم ألقى القبض على العضوين النشطين (عارف طيفور) و(حمه رضا) في نَغَدَه وضبط بعض المستمسكات التي كانت هي وغيرها تقودهم إليّ.

وأذكر تأكيداً لهذا أنّ الجنرال نصيري رئيس الساڤاك عندما أنهى زيارة توديعٍ للوالد قبل سفرنا. وكنت بين الحاضرين أنه مدّ يده مصافحاً الجميع وإستثناني وتخطاني يريد

بذلك التعبير عن فرط إستيائه أو كدليل معرفته بما أقوم به من نشاط.

في التاسع عشر من شهر حزيران ١٩٧٦ حملتنا الطائرة الى نيويورك ومنها الى مايو كلينك. في هذه المرّة إنضم الى حاشية الوالد الأستاذ محمد سعيد دوسكي الذي أجيز بذلك. وسمح بمرافقة البارزاني بالإضافة إليّ، للسيد محسن دزَيي والطبيب نجم الدين كريم. وأرفقت السلطات الأمنية الإيرانية بنا العقيد في الساڤاك (جمال مبيني).

تحسّن فجائي غير متوقّع

بعد إجراء الفحص على البارزاني، تبيّنت علائم الدهشة والحيرة على أوجه الدكتور ماكفرسن وبقية الأطباء. وقرأتُ فيها كلّ مايدعو الى العجب والإستبشار بسبب التحسن العظيم الذي طرأ على صحة الوالد. وقد لحظتُ ذلك فسألت الدكتور ماكفرسن:

- أكنتم تتوقعون مثل هذا؟

فأجاب بالنفي القاطع وقال:

- ماكنت أتوقع هو أن تزداد حالته سوءً. وكان كلُّ ماقدّرته له بناءً على تجاربي لايزيدُ عن أربعة أشهر وما أراه الآن هو أشبه بمعجزة.

وإستقرّ رأي الأطباء على أن يُعطى دورات علاج متتالية بالكيموثراپي لمدة ستة أشهر أخرى.

على إثر ذلك إتفقت إرادتا الساڤاك وجهاز المخابرات المركزي على عودة البارزاني الى إيران. فسارع (الدوسكي) الى إعلام أصدقائنا الذين نوّهتُ بهم بما يُدبّر فكتبوا رسالة لرئيس الجمهورية مظهرين سخطهم وإستيائهم من هذه الخطوة. وأحدث هذا أثره في الظاهر. وتقرر بالأخير بقاء البارزاني وتلقّيه العلاج في عين العيادة على أن تكون النفقات على حسابنا الخاص.

وأعلم العقيد (مبيني) مرجعه بالقرار. وظهر فيما بعد أنّ رسالةً وصلت السفارة الإيرانية من بلاط الشاه. تشدّد على وجوب عودة البارزاني وتتعهّد في عين الوقت بأن لايُحال بينه وبين العودة الى الولايات المتحدة كلّما أدركت الحاجة الى تلقي العلاج. وأنّ التسهيلات ستكون مضمونة وستُزال العراقيل كافةً.

بينما كنت منشغلاً في تسديد أجور الفندق أقبل السيد (مبيني) عائداً من السفارة وأبلغ الوالد بفحوى رسالة الشاه. وعندما فرغتُ وعدتُ وجدتُ وجه (مبيني) ممتقعاً وفي حالة عصبية فبادرت أسأله عمّا جرى فقال إنّ "الوالد شتم جلالته". كنت على ثقة بأنّ الوالد لاتخرج من فمه عبارة غير مهذبة. فأسرعت اليه لأتبيّن جلية الأمر وسألت الوالد فقال:

- لم أوجّه اليه شتيمة ولا إهانة. لكني علّقت على الرسالة التي قرأها عليّ الواردة من الشاه بقولي: "إن جلالته لايقول الحقيقة".

بعد أيام استدعي مبيني فعاد الى إيران.

كنّا في معية البارزاني فضلاً عنّي، السيد محسن دزَيي والأستاذ محمد سعيد دوسكي وإنفصل عنّا الدكتور نجم الدين وقصد لندن لجلب عائلته.

إستأجرنا منزلاً في واشنطن. وكنّا نقصد عيادة مايو كل شهر لتلقي دورة علاج بالكيموثراپي وبتنا نلاحظ التحسن المطّرد على صحة الوالد بين شهرٍ وشهر. وبدخولنا العام ١٩٧٧ قطع عنه العلاج والأدوية إلاّ أنّ الفحوص إستمرت بمواعيدها روتينياً.

علاقات للوالد مع بعض الساسة

خلال هذه المدة نَمَتْ علاقاتٌ طيبة ووطيدة بفريق من الساسة والصحافيين الأمريكيين أذكر منهم (جورج ميني) الزعيم النقابي وقد مرّ ذكره ونائبه (كيركلاند) والوزير السابق (شلزنگر) وأعضاء مجلس الشيوخ الأمريكي (ديك ستون) و(هنري جاكسن) و(جيمس ابو رزق) والشيخ (هيوبرت همفري) المرشح لرئاسة الجمهورية. ومن الصحافيين (وليم سافاير) و(جاك أندرسن) وصديق الوالد العتيق دانا آدم شميدت صاحب كتاب (رحلة الى رجال شجعان) الى جانب عدد من السفراء والدبلوماسيين المتقاعدين والعاملين. من امثال جيمس إيكنز وويليام إيگلتن. ومسؤول قسم الخليج في وزارة الخارجية (موريس دريپر) الذي لم يكتم إعجابه بالبارزاني وقد حاول في حدود صلاحياته أنْ يبذل كلّ مساعدة ممكنة.

والى جانب الشيوخ الذين ذكرتهم كان هناك آخرون وعدد من أعضاء الكونگرس البارزين. كما أذكر لم يكن عند هؤلاء لـ(كيسنگر) غير التنديد واللعنة. وكلّهم كان

يكره سياسته وطريقته في معالجة شؤون الإدارة الخارجية. وبلغ الأمر بأحدهم أنْ أعلن خجله من البارزاني والكُرد للمعاملة السيئة التي أقدمت عليها إدارتهم بحقه. وبقيت علاقتنا وطيدة بهؤلاء الساسة وبالصحافة الأمريكية. وكثيراً ماكانت تظهر تحليلات وتعليقات حول القضية الكُردية وأنباء عن الوضع الصحي لـ"زعيم الثورة الكردية".

غادرتُ الولايات المتحدة الى سورية. وبسابق تصميم وإعمال التفكير نجحنا في إنشاء علاقات طيبة مع السلطات هناك ولأول مرّة. ولا أريد الخوض في أيّ تفاصيل هنا لأنها تتعلق بعملنا في القيادة المؤقتة وهو ما سأتطرق اليه عندما أشرع في الكتابة عن ثورة گولان.

إتفاقٌ عجيب

سقوط الشاه

في العام ١٩٧٨ قام الشاه وزوجته بزيارة رسمية الى الولايات المتحدة، والحكومة كانت بيد الحزب الديمقراطي ورئيس الدولة جيمي كارتر وهو ديمقراطي أيضاً. كان محور السياسة الأمريكية وقتذاك يدور حول حقوق الإنسان في العالم. وكانت إيران من بين الدول التي عرفت بسياسة القمع السياسي والفكري وإعتماد الإجراءات التعسفية في ملاحقة أحرار الفكر والمعارضة. فإنطلقتْ بمناسبة الزيارة وفي أثناء حفلة الإستقبال التي اقيمت للضيفَيْن في حدائق البيت الأبيض مظاهراتٌ صاخبة على الرصيف أمام مداخل البيت الأبيض وفي اثناء مراسيم الإستقبال كانت الشرطة تستخدم الغاز المسيل للدموع بغية تفريق المتظاهرين. وإذا بالغاز يتسرب الى الداخل فيستدرّ الدموع من عيون كارتر والضيفين الإيرانيين وبقية المدعوّين وكان منظراً فريداً في بابه لم تفت الصحافةُ التعليقَ عليه. أذكر هذا لأن عدداً كبيراً من المتظاهرين الكرد المغتربين شاركوا في تلك التظاهرة. فكل عمل أو نشاط ضد الشاه كنا نجده جديراً بالثناء والتقدير لايتردد أبناؤنا في المشاركة فيه عند أول فرصة.

ولم يطل الزمن بالشاه فبعد بضعة أشهر فقط، إجتاحت إيران التظاهرات الشعبية المطالبة بسقوطه ثم تعاقبت الأحداث بسرعة على أثر طرد الإمام الخميني من العراق وقبوله لاجئاً في پاريس. وإنقلبت تلك التظاهرات الى ثورة إكتسحت البلاد طولاً

وعرضاً مطالبة برأس الشاه مما أجبره على الرحيل مثلما فعل قبل ربع قرن وفي هذه المرّة لم يكن الأمريكان مستعدين للعمل على إعادته. وأعطينا التوجيهات لأعضاء الحزب وكوادره ومنظماته بالتعاون مع القوى المعارضة وان لايدّخروا جهداً في النشاط الثوري بشتى أشكاله بالتنسيق مع الجبهة المعارضة. ومن أبرز وجوه التعاون هو قيام أعضائنا بتدريب الثائرين الإيرانيين على إستخدام الأسلحة حيثما طلب منهم لاسيّما في مدن يَزْد وتبريز وأراك ورَشْت.

وبعد نجاح الإنقلاب أبدى (صدوقي) في يَزد و(قاضي طباطبائي) في تبريز تقديره لهذه الخدمات.

قدوم الأخ إدريس الى أمريكا

كان الأخ إدريس يحاول قبل الإنقلاب الحصول على إذن من حكومة الشاه بالتوجه الى الوالد فيأتي الرفض من الجنرال نصيري رئيس الساڤاك الذي بلغ حنقه حدّاً أن شرع بالتفكير في محاولة طرد أفراد الأسرة البارزانية جميعاً من إيران ومنهم أفراد عائلتي وعائلة إدريس. لكنه وقبل أنْ يخرج القرار الى حيز التنفيذ أقيل من منصبه تحت ضغط جماهيري - وعُيّن سفيراً لبلاده في الپاكستان. وإذ ذاك سهل على إدريس الحصول على إذن بالسفر.

في أوائل شهر تشرين الأول من ١٩٧٨. وصل الأخ إدريس واشنطن.

بعد عودتي من سورية وملازمتي الوالد كالسابق بدأت أتلقى دروساً في الطبخ وإعداد الطعام على يد السيد محسن دزَيي. وكان ينهض بهذه المهمة خلال فترة غيابي. ويبدو أني تقدمت في دروسي كثيراً وبلغت حد إتقان هذا الفن بحيث لم يسع معلمي كتم إعجابه والإعلان عن رضاه بما أهيّئه من أطباق. بل كان أحياناً يقرّ "ومن دون مجاملة" بتفوّق التلميذ على الأستاذ.

وكان ثمّ إختصاص في إختيار الوجبات وإعداد المائدة ومايلحق بذلك. فإن إستقر الرأي على أن تكون وجبة اليوم الرئيسة اللحم المشوي عهد بالأمر (للدوسكي) لمهارة خاصة بإعداده. ويكون طبخ الرز والشورباء من واجب أحدنا وهكذا. ثم إلتحق بنا بعد فترة قصيرة (عزيز ملا آكرَيي) فحمل عنّا بعض أعباء الخدمة المنزلية بما في ذلك غسل الأطباق والأواني. وكانت من أشقّ المهام علينا جميعاً.

وجدته كثير الرعاية لي والإهتمام بي في تلك الفترة. كأنه يريد أنْ يظهر لي رضاه عنّي وهو أعجبُ العجاب لمثل من هو في مثل حالته. ومما أذكره في هذا الصدد: ذات يوم وكانت نوبتي في إعداد الطعام والمائدة، أنّي تركت الطبيخ على النار لأردّ على مكالمة تلفونية. وطال أمد الحديث حتى بلغ شياط الطعام المحترق أنفي. فأسرعت ورفعته وقد إحترق جانب منه فعلاً وأفرغته في الصحون ووضعته على المائدة وكان الرز وشورباء الباذنجان الذي أصابه الحريق.

وأشغلتني مكالمةٌ تلفونية أخرى. كما كان هناك موعدٌ مع الطبيب يجب التهيؤ له. عدتُ الى المائدة بعد فراغي لأشارك الوالد بشيء مما هيّأت. وما كاد ماتناولت منه يستقرُّ في جوفي حتى أدركني غثيان فأسرعت الى الحمام لإفراغ ما أكلته. ثم أسرعت الى الوالد قاصداً منعه من تناول ما أعددتُه وسألته "هل أكلت شيئاً؟" فأجاب وهو يواصل الأكل "بلى، ها أنت ترى ذلك". فهتفتُ "كلا، كلاّ لاتفعل فهو تالف. سآتيك بشيء من الخبز واللبن. لاتأكل فهذا محروقٌ".

أجاب الوالد مازحاً- ومطيّباً خاطري لعلمه بأني المسؤول:

"والله يا ابني سيصيبك أجرٌ لو فعلت!"

طريقة مؤدبة ظريفة للإشارة الى عدم إستساغته الطعام دون إشارةٍ ولو من بعيد الى إهمالي مراعاةً لخاطري. وإذ ذاك لم يسعني إلا أن أبادر الى الإعتذار عن التقصير بالشكل الذي أراني مستحقاً فقلت:

- سيديّ الوالد، أنا هنا للقيام بواجب خدمتك وهو شرف عظيم. وأرجو منك ملحاً مصارحتي ومواجهتي. وإنالتي ما أستحقُّ من لومٍ عن إهمال يصدر منيّ.

رجوته أنْ لايكرر ذلك معي إلاّ أنّه بقي أسير طبعه وخلقه الرفيع ولم أسمع منه كلمة تأنيب واحدة.

شاءت الأقدار أنْ لايكون حظي من الوالد مثل حظوظ الأبناء بوالديهم عادة. فقد غادرنا في رحلة طويلة إمتدّت زهاء إثني عشر عاماً وأنا طفلٌ رضيع وحُكم عليّ أن لاأكون كسائر الأبناء، فقد سمعتُ عنه ولم أسمع منه طوال فترة الحداثة. ونصيبي منه

إذ ذاك لم يكن أكثر من صورة شمسية باهتة له.

كذلك لم تُتح لي الظروف بالكثير منه بعد عودته من منفاه. إذ سرعان ما أرغم على مصارعة أمواج بحر الرابع عشر من تموز المتلاطم. بدءً بعلاقة قلقة مع عبدالكريم قاسم ومروراً بمتاعب الحزب الذي كان على رأسه، وإنتهاءً بقيادته ثورة أيلول وكلّها كانت تستأثر بجلّ وقته وتبعده عن المحيط العائلي.

لمّا بلغتُ أشدّي وسمح لي في العام ١٩٦٢ بالإنضمام الى صفوف البيشمرگه، والى جانبه، ماكان بوسعي وفي تلك السنّ المبكرة وظروف الثورة من حلّ وترحال ومعارك وإجتماعات أنْ أعرفه معرفة صميمة وبقيت علاقتي به علاقة وظيفية. وندر أن خلوت به إلاّ لتلقي التوجيهات والأوامر والتوصيات أو المشاركة في إجتماعاتٍ أو إستطلاعات على الجبهة لم تكن رغم غناها - كافية في نظري للمعرفة الوجدانية الصميمة التي كنتُ أطمح اليها دائماً، إلاّ خلال هذه الأعوام الثلاثة الأخيرة من حياته وهي أعوام مرضه وكنتُ إذ ذاك قد بلغتُ السنّ التي تمكّنني من الحكم على الأمور والطبائع البشرية بشكلٍ عام. وهكذا ففي خلال هذه الأعوام الثلاثة إكتشفتُ في الوالد ما عزّ عليّ إكتشافه طوال السنوات العشر التي رافقته فيها جندياً. وتأكّدت من كلّ ما سمعتُ عزي اليه من الجَلَد والشجاعة وما روي لي عن صفاء ذهنه وصبره أمام الخطوب والمآزق ووقوفه إزاءها بحزمٍ وبرودة دم. وقد شهدتها بعينيّ أثناء صحبتي له لكني ماكنتُ أتصور أنّها ستبلغ المبلغ الذي وصلته عندما أدرك طبيعة الداء المبتلى به إدراكاً تاماً وعلم بأنّ أيامه معنا أصبحت معدودة. فقد راح هو نفسه يخفف عنا وقع الصدمة ويشدّ من عزمنا ويهيؤنا فكرياً لإستقبال نهايته كما لو كنا نحن المبتلين وهو السليم المعافى. ظل أبداً ذلك الرجل الصلب العود الشديد العزيمة أمام الموت ولم يطرأ أيّ تغيير على طبعه الجادّ وفكره السليم ولم يكن يقتضي منه ذلك أيّ جهدٍ أو إفتعال بل بقي على السجية المأثورة. تراه ينصح ويقترح ويشدد من العزائم في أحاديث لاتخلو من مرح وفكاهة أحياناً إلاّ أنّه كان يستشهد بوقائع وحكايات وأمثال وآيات قرآنية بالمناسبة وكلّ قصده تبديد وحشتنا وتفريج كربتنا وبثّ العزيمة فينا.

لامراء في أنّ معظم هذه القوى الروحية التي صاحبت حياته إذ ذاك كان يعود الى إيمان راسخ قويّ بالمشيئة الإلهية، وهو بالتأكيد ثمرة تربيته الدينية ونشأته على آداب

الطريقة النقشبندية وقد لُقّنها منذ الحداثة. فضلاً عن تجاربه العديدة الجسام بحياة تحفّ بها الأخطار والمحن والأزراء. فقد ولد بعد وفاة أبيه بشهرين ودخل السجون في حضن أمه وهو إبن ثلاث. وكان حدثاً عندما نال معلمه وأخوه الأكبر الشيخ عبدالسلام الشهادة. وبلغ أشدّه في رعاية أخيه ومثله الأعلى الشيخ أحمد. وحمل السلاح وعبء القيادة وخاض المعارك وهو في مقتبل الشباب ضدّ جيوش نظامية. ونقلته المنافي وبلاد الغربة في منطقة واسعة من الكرة الأرضية من (أرضروم) على الحدود الأرمنية شمالاً الى الناصرية في جنوب العراق. ومن الديوانية غرباً الى مهاباد شرقاً، فضلاً عمّا كابده من ترحيل قسريّ داخل الإتحاد السوڤياتي على يد حكام غلاظ. وفي معظم هذه المنافي إنْ لم أقُل في كلها كان ثقل العناية بأفراد العشيرة والرفاق الذين شاركوه النفي يقع على عاتقه بشكلٍ طبيعي فلايتردد مدركاً بطريقةٍ ما أنّه صاحب رسالة وأنّه خُصّ وأختير لحمل هذا العبء وأنّ عليه تحمّل تبعاته بكلّ ما ينجم عنه من عناء وتضحية. وبشجاعته الخارقة أثبت وجوده وهو في مقتبل العمر.

وكفله الشيخ أحمد وعني بتربيته وتلقينه المباديء التي فرضتها الطريقة. ومنه ومن الشيخ عبدالسلام ومن خاله أحمد بيرسياڤي تفهّم ذلك الطابع الجهاديّ الذي إتّسمت به النقشبندية وهو عدم الفصل بين الأسس المثلى لتعاليم الدين وبين حبّ الوطن والشعب والدفاع عنه والجهاد في سبيله. ومن أسمى تعاليمها المساواة الإجتماعية والتواضع والتسامح الديني عملياً وبأجلى مظهر كما بدا له في بارزان التي بقيت أبداً وطن اليهود والمسيحيين قدر ما كانت وطن المسلمين. هذه التربية وجدناها تنعكس على القرارات المصيرية التي كانت شؤون ثورة أيلول تضطره الى إتخاذها لتأتي مثالاً يُضرب للعدالة والحكمة.

في غضون الأعوام الثلاثة التي عشتها معه أتيح لي تفهّم مغزى الكثير من تصرفاته وأساليبه في معالجة الأمور وإنكشف لي من خُلقه وأحاديثه السرّ في نجاح زعامته وقراراته. وهو ما فات العدد الكبير من أعوانه ومساعديه ممن نالوا ثقافة عصرية ودرجات علمية. وقد حاول بعضهم منافسته وناصبه بعضهم العداء.

كان البارزاني مستعداً دوماً لنيل السائل ما يريد منه، باللطف والكياسة وبحكم المنطق. ضنيناً متصلباً الى أقصى حدّ إنْ حاول أحدهم أن ينال ما يريده منه بالقوة أو أنْ

يفرض عليه أمراً فيه من التحكّم والغطرسة ما فيه. وعلى ضوء هذا أمكنني تفسير موقفه الصلب المتحدي من باقروف زعيم الحزب الشيوعي الأذربيجاني أحد أعوان لاڤرنتي بيريا المقرّبين عندما هدّده وتوعّده فتحداه ملا مصطفى وصمد له وهو على علم بعواقب هذا التحدي فقد نفاه الى جزيرة نائية في منطقة الأورال وبقي فيها شبه سجين طوال خمس سنوات حتى وفاة ستالين وتصفية باقروف ورئيسه بيريا.

والتواضع والبساطة سجيّتان ظاهرتان فيه لايفتعلهما كما يفتعلها بعض القادة والزعماء من باب الدعاية وسياسة إجتذاب القلوب. تراه يجالس الفلاح والراعي حيثما يلقى واحداً. ويحدّثه من ذات نفسه دون تكلّف ومن دون أن يُشعره بأنّه أعلى منه مقاماً. وفي خلال هذه الفترة صرت أدرك عن يقين سرّ إخلاص أتباعه المتناهي له وتنفيذ ما يلقيه عليهم من مهامّ دون تردّد أو سؤال فقد كان يبدأ بنفسه أولاً فيتقدم أتباعه في مواطن الخطر، غير محاول قطّ أن يضرب مثلاً لهم منه بل هو الحافز الطبيعي الذي تصنع منه الزعامة الحقة. سمعت من أتباعه حكايات حول هذا وظننت أنهم يبالغون لكنها الحقيقة.

وفي صفحات التاريخ قدر مطالعتي فيه مُثُل لحسن القيادة ووقائع تضرب وتذكر للزعامات. وكانت المقارنة لابدّ منها. أنا لاأعتقد أني قرأت عن قائدٍ أو زعيم سياسي ملك من التجارب العملية قدرما ملكه الوالد. إنّ أساليبه عملية تستمدّ قوّتها من الواقع ومن تلك المَلَكَة التي إختصّ بها القياديون الملهمون. رأيته مثلاً لايمنح ثقته الكاملة بأحدٍ من أعوانه ومساعديه. وإنْ منح ثقةً فبعد إختبار وبصعوبة تعادل حجبها عن الغير. مع هذا فالشكّ ليس من طبعه وميزان تقديره هو التجربة بعد التجربة وحسن الأداء. وإسترسالاً من هذا إتضح لي السرّ الذي كان يختفي تحت الوصايا والأوامر الباتة القاطعة السياسية منها والعسكرية والمتعلقة بالقرارات المصيرية، فهي نابعة عن ثقة بالنفس لا حدّ لها وهي الثقة التي تلازم أصحاب الرسالات المختارين. هذه الثقة التي تفسّر إصراره الشديد على المضيّ قدماً فيما إختاره حتى النهاية ومهما كلّفه الأمر دون تراجع.

والصدق والصراحة جزءٌ من تربيته. وجدته يحتقر الكذب والكذابين ويحترم الحقيقة وصاحبها. والكذاب لايجد عنده منزلة. إنّه يغفر ولكنه لاينسى.

صُوِّر البارزاني بأقلام كثيرين خصوماً أو غير خصوم، بذلك الزعيم المرهوب الجانب المتعالي الجهم. وليس في هذا ظلٌّ من الحقيقة. كان إنساناً شديد الحساسية متجاوباً للغاية ومشاعر الآخرين، يخفي تحت صلابته القيادية نفساً ملأى بالعاطفة والحدب والرعاية لمصائب الآخرين والذي عرفه عن كثب ولازمه لابُدّ لاحظ حبّه للفكاهة بل البحث عنها وروايتها وإستخدامها في كثير من الأحيان في ضرب الأمثلة وهو يحفظ منها الكثير. يؤكد لك علماء النفس كما قرأتُ أنّ ملكة الفكاهة في المرء دليل على خلوّه من مركّب النقص، وطيبة طبيعية فيه.

إتضحت لي هذه الجوانب من حياة البارزاني خلال ملازمتي له طوال السنين الثلاث. وقد زادت هذه الجوانب حساسية وظهوراً في الإهتمام الكبير الذي كان يخصّني به، وزيادة التلطف معي عند إصراري على اللصوق به والقيام على خدمته فلم يعترض إلاّ أنّه كان يشفق على تفرّغي اليه، وحدث ذات يومٍ أنّي تلقّيتُ مكالمة هاتفية من أخي إدريس في إيران. ومما قال لي أنّ أطفالي هناك يريدون التحدث إليّ عبر الهاتف، وكان سؤالهم "متى تعود؟" رددوا ذلك مراراً وتكراراً وأحرجتني الإجابة إذ لم أكن أرغب أن يفهم الوالد، ورحتُ أتهرّب من الإجابة بمحاولات أدرك الوالدُ معها أنّي أخفي عنه شيئاً يتعلّق به. فألحّ بعد نهاية المكالمة في معرفة أسباب مناوراتي وغموضي في الإجابة على أسئلة الأطفال. ولم يسعني غير قول الحقيقة. إذ ذاك بانَ عليه التأثّر الشديد وقال:

- يا بنيّ ها إنّي أظلمُك. وأنت بهذا تظلم أبناءك. فمن أجلي أنا يُحرمون عطف والدهم وهذا كثير.

أجبته وفي نفسي ما فيها:

- ياسيدي ويا والدي. كان قصدي الأول والأخير أن أنال شرف خدمتك. وهو ما عزّ عليّ نيله طوال وجودي معك في أيام الثورة. ورجائي منك أن لاتستكثر عليّ مثل هذا الشرف. ودعني أنعم به الآن. حقاً انّي أحبّ أولادي لكنّي وأقول هذا من كلّ قلبي - إنّي أطلب من الله أنْ يجعلني وإياهم فداءً لك. أنا الآن أحظى بتكريم ومقام طالما تمنيتهما وهما الحظوة بشرف خدمتك والبقاء الى جانبك ولن أتنازل عن هذا التكريم فرجائي منك أن لاتُسمعني شيئاً من هذا القبيل.

ولا أريد الإفاضة في هذا فمن الصعب جداً أن أسترسل دون أنْ تغلب عليّ العاطفة

وليس سهلاً على الأبناء الحديث عن آباء لهم ضربوا سهماً في الحياة العامة وخلّفوا أثراً باقياً في تاريخ أمّتهم كالبارزاني.

إعتمدتُ الكتابة عن تاريخه النضاليّ في كتبٍ ثلاثة هذا آخرها. وكان من مقتضى دوري فيها إبداء وجهة نظري الخاصة بإنسان سبق وأن تناول جوانب من حياته كتّاب معروفون، فضلاً عن بروز إسمه في الموسوعات ودوائر المعارف الكبرى بمختلف اللغات الأجنبية. رجل جعلت سيرته وتاريخه النضاليّ من "بارزان" هذه القرية المنقطعة الجاثمة في حضن الجبال رمزاً لكردستان ولنضال الشعب الكردي وإسماً عالمياً يشرّف من ينتسب إليها. إلاّ أنّي شعرت بأنّي مطالب من القارىء بإبداء وجهة نظري فيه وأنّ كتابي هذا سيكون ناقصاً إن خلا منها.

إنّ حياة البارزاني الحافلة وأثرها الباقي في إسهامها في النهضة القومية الكردية بإخراجها من حيزها المحليّ الضيق الى الأفق العالمي بل قُل تدويلها لم يكن بحاجة الى قلمي فقد جرى تقويمها ووضعها في مكانها التاريخي قبل عقدي النية على الكتابة. وقبل أن يوافيه الأجل بزمنٍ بعيد. وأولئك الذين حاولوا النيل والإنتقاص من دوره الكبير في إحياء آمال الأمة الكردية بالحرية، وحرصوا على تسقّط ما إعتبروه هفوات وأخطاء له في مسيرته القومية، والنيل من المكانة التي بوّأه إياها الشعب الكردي والتاريخ الحديث، هؤلاء أسقطهم التاريخ من حسابه قدر ما لقيت مجهوداتهم في هذا السبيل من إحتقار وإهمال. ولا عجب أنْ كان مصدر إعجاب كلّ من إلتقاه وجالسه هناك. وكُلّهم من عليّة القوم ورجال السياسة.

بقيتُ صحبة إدريس حوالي عشرين يوماً ثم شخصتُ الى لندن لتفقّد تنظيماتنا والتنسيق مع المعارضة الإيرانية ولأجل القيام بزيارة للإمام الخميني في باريس، والهدف النهائي كان الذهاب الى كردستان عن طريق تركيا أو سورية بصورة سرية وبمساعدة التنظيمات الشقيقة والصديقة. وكانت الخطة أن أنتقل الى قبرص ومن هناك أواصل مسيرتي الى كردستان. وعليّ هنا التنويه بالمساعدة الكبيرة التي تلقيتها من السيد ياسر عرفات في هذا المجال.

قمت أولاً بارسال (محمد رضا) الى العاصمة الفرنسية تمهيداً لزيارتي فإجتمع بمعاوني الإمام وأعضاء حاشيته. على أني آثرت قبل ذلك زيارة العاصمة النمساوية

للقاء بأعضاء مقرّ فرع أوروبا لتنظيم الخارج. وقضيتُ في ڤيينّا فترة مداولات تتعلق بأمور التنظيم وتوزيع المسؤوليات على الكوادر وما الى ذلك.

من غرائب الإتفاق

في أحد أيام تشرين الأول ١٩٧٨ خرجنا بصحبة الوالد قاصدين أحد المخازن الكبيرة (سوپر ماركت)، وفي معيّته خلافي كلٌّ من محمد سعيد دوسكي ومحسن دزَيي. وفيما كنّا نتجوّل في أقسام المخزن لفت نظرنا رجلٌ وإمرأة كلاهما في حدود الخمسين بملامح شرقية واضحة، يسترقان النظر إلينا ويتحدثان فيما بينهما بلغة غير مفهومة إلاّ أنّي سمعتُ بوضوح إسم البارزاني يتخلّل حديثهما. وبدافع الحذر والريبة التلقائي طلبتُ من الوالد أن ينتحي الى جانبٍ صحبة محمد سعيد، لنقوم أنا ومحسن بشراء ما جئنا في سبيله والخروج بسرعة.

قمنا بذلك وخرجنا. فإذا بالرجل والمرأة واقفان بالباب ينتظران خروجنا ثمّ تقدّم الرجل منّا ببعض تردّد وإبتدرنا قائلاً:

- أيمكنني توجيه سؤال؟

أجاب محسن: نعم، تفضّل.

سأل الرجل:

- أليسَ هذا الجنرال بارزاني؟

طلب محسن من السائل التعريف بنفسه

- مَن تكون؟

أجاب الرجل أنا (وذكر إسمه) حفيد أنترانيك پاشا الأرمني.

ما أنْ سمع الوالد بإسم (أنترانيك) وبصلة الرجل به حتى تقدّم وإحتضنه بحرارة. وإنكبّ الرجل على يد الوالد ولثمها. ثمّ إلتفت إلينا موجهاً هذا القول بصوتٍ متهدّج مليء بالعاطفة:

- أتعرفون مَن هو هذا الذي ترافقونه؟ إنْ كنتم غافلين ولاتعرفون كيف تخدمونه فإسمحوا لي ولزوجتي بالتشرّف بخدمته. إن كنتم لاتقدّرون قيمة هذا الرجل فأنا

أعرف قيمته حقّ معرفة.

شكرناه على موقفه وأخذنا عنوانه ورقم تلفونه، وودّعانا وداعاً حاراً.

ما أن إستقرّ بنا المقام في المنزل حتّى بادرنا الوالد وقد أخذ الشوق منّا مأخذه بإيضاح الأمر فقال:

تعرّض الأرمن للمجازر الرهيبة التي حصلت خلال الهجوم التركي ضد القوات الأرمنية التي كانت تحارب في سبيل الإستقلال خلال ١٩٢٠-١٩٢١ بقيادة أنترانيك پاشا وإنّه بعث برسالة إستنجاد الى الشيخ أحمد وكانت فلول قواته محاصَرة، وهو يكاد يقع في أسر القوات التركية. فبادر الشيخ أحمد بإرسال قوة تعدادها (٢٠٠) مسلّح من العشيرة البارزانية بقيادة (أولي بگ) وكنتُ من ضمن تلك القوة. فإخترقتْ مناطق عشائر الريكان والهُورَماريين وغيرها من المناطق التي كانت تعترض سبيلنا. وكنّا نموّه عليهم قصدنا عندما يسألوننا بقولنا نحن ذاهبون لضرب الأرمن. ففي ذلك الحين كانت الحكومة التركية قد خدعت الكثيرين بالإدّعاء بأنّ الحرب التي تخوضها ضدّ مطالب الأرمن القومية ماهي إلاّ حربٌ بين المسلمين والمسيحيين وإنّ الحكومة التركية تقاتل في سبيل نصرة الإسلام. بلغنا المنطقة التي عيّنت لنا وأفلحنا في إنقاذ عوائل الأرمن هناك ومن بينهم أسرة أنترانيك وأوصلناهم بأمان الى سورية ثمّ عدنا الى بارزان بطريق زاخو وقد فقدنا ١٤ شهيداً خلال إشتباكات حصلت لنا مع الجيش التركي.

هذا الرجل حفيد أنترانيك لابدّ وأنّه سمع الحكاية من والده وذويه[٤].

٤- وقائع القائد أنترانيك هي جزء من التاريخ الأرمني وقد ذكر ويگرام طرفاً منها في«مهد البشرية: الحياة في شرق كردستان» الطبعة الثالثة، ترجمة جرجيس فتح الله، أربيل ٢٠٠١. ص ٣١٣.
إنّ سرّ إستنجاد انترانيك بالشيخ أحمد دون غيره من سائر الرؤساء الكُرد رغم فارق المسافة والعنصر والدين يعود الى علاقة صميمة نشأت بين الشيخ عبدالسلام الثاني البارزاني وبين القائد الأرمني في حدود العام ١٩١٣، عندما إلتقيا في تفليس وإتفقا على إقامة إتحاد كونفدرالي لأرمينيا وكُردستان مستقلّتَيْن. وكُنّا قد أشرنا الى ذلك فيما سبق.

محاولة الإغتيال

وفي ڤيينّا كانت محاولة إغتيالي. وبيني وبين التوجه الى پاريس ثلاثة أيام.

في الثامن من شهر كانون الثاني ١٩٧٩ نفذت السفارة العراقية في ڤيينّا محاولتها في القضاء على حياتي. وأُطلقت عليّ عدة عيارات نارية من جماعة ترصدت خروجي من المنزل. وكُتبت لي السلامة ولم أُصَب. إلاّ أنّ مرافقيّ آزاد بَرواري وپيروت احمد أصيبا بجراح.

ثم واجهتني مشكلة كبيرة بجواز سفري الذي إنتهت مدة العمل به وكان من المقرر أنْ أزوّد بجواز سفر جديد في پاريس. فأضطررت الى البقاء في النمسا وتلطفت السلطة بتأمين حماية لي وإتخاذ تدابير أمنية بعد فشل المحاولة. ثم أسرعت الحكومة بتذليل مشكلة جواز السفر، لاشك في أنّ الدافع هو الإسراع بالتخلص من أعباء وتبعات وجودي فيها. فقام الاخوان بإرسال جواز السفر الى ڤيينّا وكان من المقرر تسلّمه في پاريس. جاءني به كريم سنجاري ودلشاد ميران.

بعد التشاور مع الوالد بدا من الأفضل أنْ أترك أوروپا الى بيروت وجزيرة قبرص لأكون هناك في حماية بعض الأصدقاء وأنْ أصرف النظر عن التوجه الى پاريس. وإستشرت الوالد وإدريس فتركا لي الخيار. وآثرت الأخذ بإقتراح (عرفات) فبعث فعلاً أحد مسؤولي مكتبه ليبقى معنا في قبرص فترة من الزمن. وتوجهت الى الجزيرة في الثاني عشر من كانون الثاني ١٩٧٩، ومعي كريم سنجاري ودلشاد ميران وبينما نحن في ترانسيت مطار أثينا لمحنا (برزان التكريتي) أخا صدام حسين، على مبعدة. ومعه ستة من رجال المخابرات العراقية كلٌّ يحمل حقيبة (لا أستبعد أنها تخفي أسلحة). وكانوا قد عادوا من ڤيينّا بعد فشل محاولة الإغتيال[٥].

(٥) في العام ١٩٩١. وكنت اذ ذاك في بغداد. سألت برزان التكريتي:
– أتبيّنتني عندما إتفق لقاؤنا العرضي في مطار أثينا؟
أجاب:
– بلى عرفتك. إلاّ أني تظاهرت بالغفلة ومررتُ بك وكأني لم ألحظك. وأظنك فعلتَ مثلي؟
قلت:
– بلى فقد تجاهلت اللقاء مثلك تماماً.

حالته الصحية تسوء

في قبرص إتصلت بالأخ إدريس مستفسراً عن صحة الوالد. فجاءني منه ماكنت أخشى سماعه: قال إن حالته ساءت كثيراً. فسألته عما إذا كان يرى عودتي؟ فقال: سنراجع (مايو كلينك) ثم نتخذ القرار.

بعد أيام أبلغني الأخ نتيجة الفحص. قال الأطباء إنّ الداء عاد فإستشرى وإنتشر في أنحاء أخرى. وان الدكتور ماكفرسن صارحه بأن الطب بات الآن عاجزاً وليس هناك علاج ناجع.

رغم إدراكنا بعد طول المعاناة – بالنتيجة. وبأن الطبّ يعجز عن ردّ ما قضته المشيئة الإلهيّة. فقد كان مصدر همّنا وإشغال بالنا يدور حول ماسيترتب علينا عمله بعد أن تكمل إرادة الله. وأين سيكون مثواه الأخير. وها نحن أولاء في ديار الغربة بعيدون عن الوطن بآلاف الأميال وليس من نعتمد عليه غير أنفسنا.

كانت تلك معضلتنا الكبرى. وقد أوصى البارزاني بأن تكون رقدته الأبدية في تراب بارزان وإن لم يكن ذلك ممكناً فليُدفَن في (شنو) الى جانب ضريح أخيه الشيخ بابو. وقد أدركت البارزاني الوفاة في ظروف عصيبة.

الفترة التي تلت نجاح الثورة الإيرانية كانت فترة مضطربة حافلة بالبلبلة السياسية بمراكز قوى متعددة. وليس ثَمّ حكومة بمعنى الكلمة تأمرُ فتُطاع. كانت الفوضى تسود إيرانَ طولاً وعرضاً ولا من يسمع ويستجيب. دالت دولةُ الشاه الى الأبد وحكمت الأقدارُ أن ترى عينا البارزاني هذا المشهد الذي لم يكن يتصوره أبعدُ الناس خيالاً. رأى قبل أن تغمض عيناه نهاية ذلك الشخص الذي لم يثق به قطّ ولم يأمَن غدره. وهذا ما كنّا نفكّر به جميعاً بعيداً عن الحقد والتشفي بل بداعي التأمل في أحكام القضاء والقدر العجيبة، وعلى ألسنتنا يدورُ هذا المثلُ الشهير «اللهُ يُمهل ولايُهمل».

وإتفق الأخ إدريس ومحسن ومحمد سعيد على وجوب عودتي الى طهران.

في تلك الفترة كانت علاقة حركة المقاومة الفلسطينية بالحكم الإسلاميّ الجديد على أفضلِ حال. وتمّت إجراءات عودتي بسهولة وبوجود السيد هاني الحسن سفير فلسطين لدى الحكم الجديد في طهران.

ما انْ إستقرّ بي المقام حتى إتصلتُ تلفونياً بالوالد وبإدريس وتبيّنتُ من الأخ مبلغ سريانِ الداء، وإنعقل لساني ولم أستطع مغالبة عواطفي. وقصدتُ من فوري السيد هاني الحسن لإتخاذ التدابير لإستقبال جثمانه. وقدِم السيد محمد منتظري إبن آية الله منتظري مندوباً عن الإمام الخميني لإستقبال الجثمان.

رحيل البارزاني

وفي تلك الليلة بالذات وبعد إتمام الإجراءات ورد نبأ وفاة البارزاني في مستشفى (جورج تاون) وبات نقلُ الجثمان مطلب الساعة.

كنتُ مدركاً حجم وقع نبأ وفاة البارزاني على نفوس الشعب الكردي، والغصة التي ستخلّفها في أفئدة رفاق نضاله وسائر مَنْ قاتَلَ تحت لوائه. كنتُ أخشى بنوعٍ خاص أنْ تخلّف الصدمةُ آثاراً معكوسة عند أولئك الذين أبَوا الإستسلام وعاهدوا على مواصلة النضال وأن يسلمهم الى نوعٍ من اليأس أو التخاذل. ولذلك قمتُ بإعداد هذا التصريح وإذاعته. وقلتُ فيه مما قلتُ:

> "إن وفاة البارزاني لن تكون عائقاً لنا من مواصلة النضال الذي قام بأعبائه. بل سيتواصل وسيتمُّ السيرُ على نهجه، وتلك هي في الواقع أمنيتُه ورغبتُه. وإنّ خير دليلٍ للوفاء لذكراهُ هو إبقاء نار النضال التي أشعلها متّقدةً."

وما الى ذلك من عبارات الحثِّ والتشجيع.

في الرابع من شهر آذار ١٩٧٩ وصل جثمانُ البارزانيّ طهرانَ وكان إستقباله كبيراً حافلاً. وحينما تقرر نقله مع المشيّعين الى (شنو) بادرت الحكومةُ الجديدة بتخصيص مروحيّتَيْن عسكريّتَيْن ناقلتَيْن من نوع شينوك ووضعهما في خدمتنا. وفي اليوم الخامس تمّت مواراة البارزاني التراب في مقبرة شنو قريباً من مرقد الشيخ (بابو) كما أوصى.

شارك في التشييع جمٌّ غفير لايُحصى من كُرد إيران واللاجئين وأقبلت جموعٌ من كُرد تركيا وسورية للمشاركة عابرةً خطّ الحدود. لم يكن تشييعاً بل تظاهرةً قومية بأجلى معانيها. وكنّا في تلك الفترة في أشدّ الحاجة إليها.

لايمكن أن ننسى قطّ تلك المأثرة الجليلة من حكومة الثورة وعلى رأسها الإمام الخميني والسيدين كريم سنجابي وداريوش فروهر الوزيرَيْن في حكومة السيّد مهدي بازرگان القريبَيْن جداً من الإمام. وكذلك عواطف أشقائنا الكُرد في إيران والأجزاء الأخرى من كردستان وبالأخص اللاجئين الصامدين. تلك التي أبدوها بالمناسبة.

صلاح الدين　　مسعود البارزاني

٢٧-٩-٢٠٠١